

المرآة والقناع في مختارات من السيرة الذاتية العربية

د. غسان إسماعيل عبد الخالق

(فاغتفر لي الكناية عن الأسماء فهي إما عورة لا نستجيز كشفها ، وإما نحافظ في ذلك صديقا ودودا ورجلا جليلا ، وبحسبي أن أسمى من لا ضرر في تسميته ولا يلحقنا والمسمى عيب في ذكره ، إما لاشتهار لا يغني عنه الطي وترك التبيين ، وإما لرضى من المخبر عنه بظهور خبره وقلة إنكار منه).

"ابن حزم ، طوق الحمامة ؛ ٤١٨ هـ"

(لم يكن باستطاعتي في تلك المرحلة من حياتي اختراق الاقنعة التي يتستر خلفها الآخرون. لم أكن أستطيع التمييز بين الكاذب والصادق ، بين المخلص والمخادع ، بقيت زمناً طويلاً لا أعرف أحداً على حقيقته . عرفت الآخرين فقط كما بدوا لي من خلال أفئدتهم وسذاجتي) .

"هشام شرابي ، الجمر والرماد : ذكريات مثقف عربي : ١٩٧٨ م"

● مقدمة :

- ضمن ثقافة يتوتر فيها قوس العلاقة بين الذات والموضوع حتى يصل حد التناقض التام....

- وضمن ثقافة تحول سيرة الذات إلى سيرة للآخر

- وضمن ثقافة تغدو السيرة الذاتية فيها انتزاعاً لحق الذات في الاحتفاء بذاتها قبالة إملاءات الاحتفاء بالواقع

فإن ثنائية المرأة والقناع ستبدو أكثر مكرراً مقارنة بالثقافات الأخرى . كما أن المبادرة للبدء من (سيرة ذاتية) متعينة في الزمان والمكان هي الإجراء المعرفي الأكثر سداداً .

• طوق الحمامة لابن حزم

من المرجح أن ابن حزم (ت ٤٦٣ هـ) أقدم على تأليف (طوق الحمامة في الألفة والألاف) نحو عام (٤١٨ هـ) أي حينما كان في الرابعة والثلاثين من العمر ، وقد تجاوز ابن حزم في هذه (السيرة) العديد من المحذورات والمحظورات التي طالما نبه عليها نقاد السيرة ونقاد المجتمع في آن :

- فقد كتب هذه السيرة في مقتبل عمره حارماً نفسه من إمكانية كتابة هذه السيرة في سن الاكتهال والنضوج .

- وقد كتب هذه السيرة وهو مازال في (مطبخ السياسة والحياة) فحرم نفسه من فرص سياسية عديدة جرّاء تصريحاته التي طالت العديد من الأمراء والوزراء والكتّاب .

- وقد وضع في أيدي خصومه ورقة إدانة دائمة له ، وهو الاريستقراطي السياسي العالم . فهل ثمة قناعٌ بعد ذلك في (طوق الحمامة) ؟؟

لقد أقدم ابن حزم الاريستقراطي والسياسي والعالم على الخوض في شؤون الحب وشجونته، منظرًا ومجربًا ، فجاز لنا أن نعد (الطوق) من هذه الزاوية مرآة واضحة له في صباه وشبابه .

لكننا لا نلبث طويلاً حتى نتساءل : وهل من كان مثل ابن حزم يحتاج لمن يرشده في السياسة والحياة ؟! وإذا افترضنا انه كتب طوق الحمامة ليكون قناعاً وليس مرآة فما المرمى البعيد الذي يرمي إليه ابن حزم ؟

- هل كان يرمي إلى انقاذ شباب الأندلس مما راحوا يتقلبون فيه من لهو ومجون ، وخاصة بعد أن انفرط عقد الخلافة الأموية ، وآثر أن يتخذ من نفسه ومن أصدقائه نماذج للعبارة والاعتاظ ؟

- أم أنه وفق قصة الصديق المنقطع الذي توجه إليه بالسؤال عن الحب ذريعة للاستطراد في هذا الشأن ولقول المزيد من الأشعار في محبوب لا يستطيع الوصول إليه ولم يصريح لنا باسمه ؟

• حي بن يقظان لابن طفيل

من المرجح أن ابن طفيل (ت ٥٨١ هـ) أقدم على تأليف (حي بن يقظان) نحو عام (٥٦٦ هـ) أي حينما كان في الستين من العمر . وخلافاً لابن حزم الواقعي المتعجل فإن ابن طفيل المثالي المتأمل قد انتظر طويلاً ليكتب مايمكن تسميته بسيرة حياة مرتجاة !! هل يمكن للإنسان أن يكتب سيرة حياة لم يعشها ؟ هذا ماحدث مع ابن طفيل في قصته (حي بن يقظان) حيث مثل حي بن يقظان قناعاً لأفكار ابن طفيل وقناعاً لما أمل ابن طفيل أن يخبره ومؤداه أن الإنسان يمكن أن يتوصل منفرداً إلى حقيقة واجب الوجود اعتماداً على التأمل الذاتي الباطني العميق والذي بلغ حدّه الأقصى على هذا النحو :

((مازال يطلب الفناء عن نفسه والإخلاص في مشاهدة الحق حتى تأثى له ذلك ، وغابت عن ذكره وفكره السموات والأرض وما بينهما وجميع الصور الروحانية والقوى الجسمانية وجميع القوى المفارقة للمواد ، والتي هي الذوات العارفة بالوجود ، وغابت ذاته في جملة تلك الذوات وتلاشى الكل وضمحل وصار هباءً منثوراً ولم يبق إلا الواحد الحق الموجود الثابت الوجود ، واستغرق في حالته هذه وشاهد مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)) .

• التعريف بابن خلدون

من المرجح أن ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) قد أقدم على تأليف (التعريف) نحو عام (٧٧٩ هـ) أي حينما كان في السابعة والأربعين من العمر ، وكان قد ودع طموحاته السياسية في الأندلس والمغرب ، وتفرغ للكتابة والبحث والتدريس . وإذا أخذنا بعين الاعتبار الشدائد أن ابن خلدون هو من القلائل المحظوظين الذين قيض لهم أن يعيدوا النظر فيما كتبوا - فعدّلوا هنا وهناك - وأن يستكملوا ما كتبوا - وهو ما فعله في المقدمة والعبر والتعريف - صار بمقدورنا الجزم بأن التعريف هو أبعد مايكون عن المرأة ، بل هو قناع قيض لابن خلدون أن يحوكه على مهل في مصر التي واجه فيها من الخصومة والمخالفة مثل ما واجه من الخصومة والمخالفة في المغرب والأندلس ، ولاريب في أن مفكراً ذكياً مثل ابن خلدون وهو يرى تراث ابن حزم ولسان الدين بن الخطيب يحرق .. بل وهو يرى تراث مدرسة الموحّدين وهو يتوارى ، لابد أن يتنبه لضرورة القيام بكشف حساب سياسي وثقافي يصون به إنجازاته الأكبر المتمثل في المقدمة وفي العبر ويدفع من خلاله كثيراً مما وجه إليه من تهم وانتقادات سياسية وثقافية . فمما لن ينساه ناقد أو باحث توقف مع ابن خلدون في (

(التعريف) ، بروده العاطفي جرّاء غرق عائلته في البحر بعد أن اجتهد في تيسير التحاقهم به في مصر، وكأن من غرقوا ليسوا إلا ممثلين ثانوين في مشهد مسرحي بطله الوحيد هو ابن خلدون ، ومادام أن ابن خلدون بخير فهذا يعني أن لا أهمية لمن يغرق أو يموت .

* أيام الجمر والرماد

كم أود أن قفز باتجاه العصر الحديث ، كم أود أن أقفز عن (أيام) طه حسين و (حياة) أحمد أمين اللتين اشبعنا درسا بوصفهما سيرتين ذاتيتين نموذجيتين في القرن العشرين، لأصل الى ما كتبه الأستاذ محمود الكايد رئيس تحرير الرأي تقديمًا لـ (خمسون عاما ونيف) الذي كتبه الدكتور جمال الشاعر وصدر عام ١٩٩٤. يقول الأستاذ محمود الكايد : (لقد فعل جمال الشاعر ما لم يفعله كثير من الساسة والمفكرين الذي احجموا عن كتابة مذكراتهم ... لم يكن مترددا في نشر هذا الكتاب كغيره من أقطاب السياسة وقادة الأحزاب الذين كان لهم شأن في الحياة العامة ، سواء في الأردن أو في الأقطار العربية ، والذين أثروا الصمت والانزواء والإنكماش خشية ذكر الأسماء أو التعريف بالوقائع والأحداث).

ويستشهد الدكتور جمال الشاعر قائلا : (كتب الدكتور هشام شرابي في " جمر ورماد": هذه خطوة فاصلة ، فاصلة بالمسؤولية التي اخذتها على عاتقي بانضمامي إلى هذه المؤسسة ... عضوا عاملا مع كثيرين يسعون نحو هدف يجمعهم). ثم لا يلبث أن يستدرك مؤكدا أن جيل الأربعينات بسائر أطيافه من قوميين اجتماعيين ، وقوميين عرب ، وشيوعيين ، اخوان مسلمين ، وبعثيين ، التزم أبناؤه وأعمارهم تتراوح بين الرابعة عشرة والرابعة والعشرين ، وقلما اطلع أحدهم على مبادئ سائر الأحزاب وانظمتها الداخلية ثم قرر الانضمام بعد ذلك لحزب بعينه . بل هو يؤكد أن هذا هو ما حدث بالنسبة له شخصيا حينما انضم للحزب السوري القومي الاجتماعي وكان في السابعة عشرة من عمره كما كان انطون سعادة زعيم الحزب لاجئا في الأرجنتين عام ١٩٣٨ ، وكما انتقل الدكتور هشام شرابي من الفكر القومي العربي فعل الدكتور جمال الشاعر ، وكان السبب كما يؤكد في الحاليين : افتقار القومييين العرب إلى الزخم والنشاط الفكري.

هل حافظ الدكتور جمال الشاعر على ارتداء قناع كاتب السيرة ؟ بإجماع كل من قرأ (خمسون ونيف) فقد زهد الدكتور جمال الشاعر في هذا القناع لدرجة أن (خمسون ونيف) تزخر بالأخطاء اللغوية والاملائية التي كان يسهل تداركها باللجوء الى محرر محترف لولا أن الدكتور جمال الشاعر لم يرغب بتجميل هذه السيرة أو تزويدها بأية ألعاب بلاغية.

وربما لهذا السبب نراه يعود المرة تلو المرة إلى (الجمر والرماد) الخاص بهشام شرابي ، فهشام شرابي كما هو معلوم أصر على نشر مذكراته بلغته العربية المبسطة - ولا أقول الركيكة - وقد حرّر أدونيس هذه المذكرات فلم يملك إلا أن يعجب بإيقاع الأفكار فكتب يقول: (نادرا ما قرأت نتاجا عربيا حديثا هزني ، فتمنيت لو أنني كنت صاحبه . هذه الأمنية استبدت بي حين قرأت مخطوطة هذا الكتاب) .

وخلافا لذلك النفس الخطابي الذي يمكن أن نعثر عليه لدى كُتاب السيرة الذاتية من العرب الذين مروا بالغرب - ولا أقول أثرو فيه - لا نفاجأ بفعل التعرية التام الذي يمارسه الدكتور هشام الشرابي تجاه الطلبة العرب الدارسين في الولايات المتحدة الأميركية إذ هو عندما يقارن سلوك الطالب العربي بسلوك الطالب الأميركي يلاحظ أن الطالب العربي منقوع في الرياء ، مموّه ... مخادع ... حتى لزملائه العرب ! والطالب العربي يمارس هذا الرياء دون قصد أو تفكير ؛ إذا سأله الأميركي عن نفسه او عن أهله أو عن بلده أو أي أمر آخر. إن مرد هذه الظاهرة وكما يرى الدكتور هشام الشرابي إلى غياب الشعور بماهية ذاتية واضحة.

في أحد الأيام من عام ١٩٤٨ م ذكر هشام شرابي للدكتور فال - وهو أحد أساتذة الفلسفة في جامعة شيكاغو - أن للفيلسوف المصري عبد الرحمن بدوي كتابا في الفلسفة الوجودية بعنوان (الزمان الوجودي) فأبدى اهتماما به واقترح عليه أن يجعل بحثه لذلك الفصل حول كتاب بدوي وبعد بضعة أسابيع قدّم بحثه عارضا فيه النقاط الأساسية للكتاب مع ترجمة بضعة مقاطع منه فاستدعاه فال إلى مكتبه بعد قراءة بحثه وقال : (إن الكتاب عادي ، المقاطع المترجمة وأفكار بدوي تبدو مستقاه في معظمها من كتاب هيدجر " الوجود والزمان " وليس فيها شيء جديد) !

* تسويات حساب عاصفة

وما أن نشرع في قراءة السيرة الملحمية الزاخرة التي كتبها عبد الرحمن بدوي بعد خمسين عاما حتى نصدم بثلاثة أمور : إقرار عبد الرحمن بدوي بأن الصدفة .. والصدفة وحدها .. هي من يقف خلف كل شيء في هذا العالم .. (وواهم من يظن أن ثمّ ترتيبا أو عناية أو غاية . إنما هي أسباب عارضة يدفع بعضها بعضا فتؤدي إلى إيجاد من يوجد وإعدام من يعدم) ! واستقاضة الدكتور عبد الرحمن بدوي في سوق تفاصيل العلاقات الغرامية التي ربطته

بنساء أوقعن به أو هو أوقع بهن في المانيا وهولندا وفرنسا ، وإصرار عبد الرحمن بدوي على أن كلا من حزب الوفد وحزب الاحرار الدستوريين هما عميلان نجبيان لانجلترا !

وإن كانت نبرة الكلام على الوجهة العدمية في العقيدة قد خفت كثيرا على امتداد صفحات الكتاب حتى كادت تتلاشى وحل محلها كثير من شواهد غيرة عبد الرحمن بدوي على الاسلام والمسلمين ، وإن بدا حديث العشيقات الغابرات تجرداً تاماً من أي قناع على الصعيد الشخصي ، فإن نبرة الهجاء السياسي ظلت تتصاعد وتتصاعد حتى بلغت ذروتها القصوى باظهار الشماتة التامة بوفاة الزعيم الراحل جمال عبد الناصر !

يؤكد عبد الرحمن بدوي واستنادا الى العديد من المواقف والشواهد ضلوع حزبي الوفد والاحرار الدستوريين في التآمر على مصر والمصريين ، ولا يستثني من هذا التآمر زعماء تاريخيين مثل سعد زغلول ، كما لا يدخر وسعا لتأكيد أن الشركات الزراعية الأجنبية قد أسهمت إسهاما حقيقيا في تقدم مصر والمصريين !

وقد أولى عبدالرحمن بدوي القطاع الزراعي كثيرا من عنايته ، وتوقف بوجه خاص عند تجربة التأميم الزراعي فشن هجوما عنيفا على أعضاء مجلس الثورة المصرية بوجه عام وعلى جمال عبد الناصر بوجه خاص، متهما اياهم بتخريب وسرقة مصر والمصريين، وبتدمير الشخصية الوطنية المصرية ، ومؤكدا أن الحقبة التي فصلت بين الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية ، هي التي تمثل أفضل تمثيل مصر الليبرالية في الدين والسياسة والاقتصاد والثقافة.

وفي موازاة هذا الهجاء السياسي الحاد للثورة المصرية ، فإن عبد الرحمن بدوي يجري كشف حساب عاصفا مع الأكاديميين والمثقفين المصريين ، فيتهم كل عمداء كلية الآداب في جامعة القاهرة بالانتهازية وبالانجرار خلف مصالح حزبية ضيقة لا علاقة لها بالعلم أو بالثقافة وخاصة أحمد أمين ! ولايكاد يستثني من هجومه الحاد هذا إلا عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين ومع ذلك فإنه يؤكد ضلوعه التام في أحوال الحزبية على حساب العلم ، لكنه لا يقسو عليه قسوته على العقاد الذي يزعم أنه كان يكتب دائما بتوجيه ممن يدفع له أكثر وخاصة طوال فترة الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩-١٩٤٥ ! والغريب أن عبد الرحمن بدوي يقر اقرارا تاما بأنه هو من دبّر إقدام مجموعة من (الزعران) على ضرب العقاد وتهديده بالقتل اذا استمر في مهاجمة (حزب مصر الفتاة) الذي يصرح بانتمائه له وبإعجابه الشديد بأدولف هتلر وبالحركة النازية الألمانية! وإمعانا في النكاية ، فإن عبد الرحمن بدوي يسبغ على

الرئيس المصري الراحل محمد أنور السادات العديد من مناقب العبقرية السياسية والحكمة وبعد النظر مقارنة بجمال عبد الناصر الذي لا يعدو كونه مغامرا مندفعاً أنانياً من وجهة نظره! هذا مع أن عبد الرحمن بدوي لم يدع في الكتاب فرصة إلا واهتبلها للتنديد بالحركة الصهيونية وبإسرائيل التي أقدم الرئيس الراحل محمد أنور السادات على توقيع اتفاقيات كامب ديفيد معها فأنهت ما كان يسمى (التضامن العربي) وعزلت مصر لسنوات عديدة عن محيطها العربي.

لماذا أقدم عبدالرحمن بدوي على إجراء تسويات الحساب العاصفة هذه بمثل هذا القدر من الغضب والمرارة والبعد عن المجاملة؟ ألم يدر بذهنه أن هذه السيرة يمكن أن تستثمر على نحو سلبي من قبل أعداء مصر وأعداء العرب؟ هل كان سيكتب ما كتب لو أن الثورة المصرية لم تصدر أملاك عائلته ولو أنه عين عميداً لكلية الآداب في جامعة القاهرة أو جامعة عين شمس؟ لماذا شارك بحماسة شديدة في إعداد الدستور المصري بعيد انتصار الثورة ثم ابتعد كثيراً بعد ذلك؟ ومن هو المسؤول الأحمق الذي كبّد مصر العزيرة هذه الخسارة الكونية الفادحة فاستعدى هذا الفيلسوف العربي الكبير على وطنه وعلى شعبه وعلى زملائه بل وحتى على نفسه؟!!

* حقيبة السيدة

بالنسبة للمثقف الفارس أو الكاتب الفارس ، فما من إثارة تعادل في درجة إغوائها إمكانية القيام باستطلاع حقيبة يد السيدة التي كانت في يوم من الأيام حقيبة المدرسة. أقول : بالنسبة للمثقف الفارس أو الكاتب الفارس لأن هذا المثقف أو هذا الكاتب قد يحالفه الحظ ويتزوج ممن أحب لكنه بالتأكيد لن يجرؤ على القيام باستطلاع حقيبتها إلا إذا سمحت له هي بأن يقضي حاجة في نفسه . وسوف أسمح لنفسي بالقول إن كتاب الدكتورة عايدة النجار هو أشبه بحقيبة السيدة التي كانت في يوم من الأيام حقيبة المدرسة التي تضم فيما يمكن أن تضم أعز الرسائل الى القلب ودفتر المذكرات وأجمل القصائد ولعلها كانت تضم فيما يمكن أن تضم وردة أو أكثر خبئت في كتاب !

(بنات عمّان) الذي يمثل تيار الذاكرة الفردية والجمعية في الخمسينات ، خاصة إذا قرئ بعد (سيرة مدينة) لعبد الرحمن منيف الذي يمثل تيار الذاكرة الفردية والجمعية في الأربعينات ، تقرير مطوّل يتكون من مجموعة كبيرة من الاسكتشات السريعة المرسومة بالكلمات دون حذقة أو تصنع حد السهو عن تصحيح بعض الأخطاء اللغوية ، وقد اشتمل على أدق دقائق الحياة الشخصية للكاتبة وعدد غفير من صديقاتها ومعلماتها اللواتي صرن مائتات الدنيا

وشاغلنا الناس بنشاطهن وانجازاتهن ، فضلا عن ملامح العديد من أصدقائها وزملائها الذين صنعوا الأردن وجزءا من تاريخ المنطقة ، منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر لكنهم لم يفقدوا تصميمهم على التغيير الايجابي كما لم يفقدوا ايمانهم بالحق والخير والجمال.

وعلى كثرة ما يمكن الإشارة إليه من حقائق ومن لمحات في كتاب (بنات عمان) فقد يكون من المفيد الإشارة إلى ملمحين محددين نظرا لاتصالهما الوثيق بايقاع حياتنا المعاصرة الآن. أما الملمح الأول فيتصل بالكيفية التي كان المعلمون يربطون وفقها بين التعليم وبين تحديات الواقع رغم بساطة تكوينهم وإعدادهم العلمي ، إذ واضبت معلمة التدبير المنزلي في مدرسة زين الشرف على تكليف طالباتها بإعداد ميزانية شهرية دقيقة خاصة بعائلة كل منهن جاعلة من هذا التكليف امتحانا نهائيا لهن ، وهو تكليف هين في ظاهره لكنه على أرض الواقع أفضل تدريب للطلبة على تقدير استحقاقات الحياة وحسن التدبير وعلى تعميق ثقافة ترشيد الاستهلاك ، و كما أكدت الدكتورة عايذة النجار في كتابها لم يسعفها لانتهاء مثل هذا التدريب إلا أمها التي كانت تتمتع بقدرة فطرية على إدارة نفقات الأسرة ككل سيدات وأمهات الخمسينات اللواتي تمكنّ رغم قلة الامكانيات وضيق ذات اليد من إطلاع جيل متعلم مثقف يقف الآن حائرا مدهوشا جرّاء تكاليف الحياة اليومية رغم أن الامكانيات تحسنت ورغم ان الدخل زاد . وأما الملمح الثاني فيتصل بالكيفية التي كان المتقنون يربطون وفقها بين الكتابة وبين تفاصيل الواقع ، إذ واضب الكاتب محمد سعيد الجنيدى على مراقبة طالبات مدرسة زين الشرف لشهور وهو يمتشق غليونا - مثل كثير من مثقفي أيام زمان - ولما حامت الشبهات حوله تبين انه يقوم بدراسة استطلاعية عن كُتب تمهيدا لكتابة (مذكرات تلميذة مراهقة) التي صدرت في عام ١٩٥٣ ثم اتبعها برواية (الدوّار الأول) عام ١٩٥٤ ، فما كان من إحدى العائلات المعروفة إلا أن أرسلت عددا من شبابها فأوسعوه ضربا وتكبرا جرّاء ما ظنوه تشهيرا ببنات العائلة ، وما كان من الكاتب الذي أراد أن يتعمق في تفاصيل الواقع إلا أن هاجر إلى لندن مواصلا الكتابة والنشر في الصحف والمجلات العربية، وفي ذلك عبرة لكل من أراد أن يعتبر !!

*هل يتقاعد المؤرخون؟!

ليس صحيحا أن من عاش ثمانين حولا سوف يصاب بالسأم، والدليل لمن أراد الدليل كتاب الباحث والمؤرخ الأردني الراحل سليمان موسى (ثمانون: رحلة الأيام والأعوام). بل إن الباحث والمؤرخ سليمان موسى لم يجد مانعا من الإمعان في إغاطة كل من أدركهم السأم في أول الطريق أو منتصفه فأمل بأن يمتد العمر به سنوات أخرى بحيث يمكن أن يقيض له الاستمتاع بالعودة إلى صفحات هذا الكتاب الذي أودعه سداة أعوامه التي انقضت!! حقا... ما

أضيق العيش لولا فسحة الأمل.. ولولا أناس مثل سليمان موسى الذي لخص العقود الثمانية المنقضية من عمره بعشرين عنوانا فرعيا توزعت على مئتي صفحة (فقط) من القطع الكبير.

هذا الاحتفاء الغامر بالحياة وتأكيد الاصرار على الاستمرار فيها، رغم ما يطالعا يوميا من نصوص الموت والاحباط والضجر، ليس ابرز ما يسترعي انتباهنا في السيرة الذاتية لسليمان موسى على فرادته وندرته، وذلك لأن القدرة على تعامل الذات مع سيرتها على أنها موضوع مستقل عنها هو فيما أقدر الانجاز الأهم في هذه السيرة، وهي قدرة تم استعارتها من مختبر التاريخ والبحث والتوثيق، ولولاها لتحول الكتاب إلى مجلد ضخم كبير يعج بفائض الحكايات والتأملات والحكمة المكتسبة بالتقادم.

لقد نجح سليمان موسى في تكثيف ثمانية عقود من عمره في مئتي صفحة (فقط) متوقفا أمام المفترقات الرئيسة التي تقاطعت فيها وعندها خطوط حياته الخاصة مع خطوط الحياة العامة ووثق هذه المفترقات بالأسماء والتواريخ والأماكن والنصوص. وكأي سيرة تستمد شرعيتها من تاريخها فإن (الثمانين) لم تخل من أحكام وشهادات ومقاربات ووجهات نظر في أحداث أو تيارات أو رموز سياسية أو ثقافية أو اجتماعية. وسوف نقسو على سليمان موسى كثيرا لو طالبناه بالموضوعية المطلقة وتحييد الأمر الذاتي تماما في النظر إلى هذه الأحداث أو التيارات أو الرموز، ذلك أننا وإن كنا نوهنا أنفا بامتشاقه عدّة الباحث والمؤرخ لكتابة سيرته الذاتية وأكدنا اتجاهه إلى التعامل مع ذاته على أنها موضوعة تاريخية محضة.. إلا أننا ينبغي أن نؤكد أيضا أن الموضوعية التاريخية البحتة ليست إلا أسطورة من أساطير العلم، فما التاريخ إلا روايات ووجهات نظر متعددة يحكمها ويؤثر فيها العامل الذاتي بالقدر الذي يتقاطع معه هذا العامل مباشرة مع الموضوع. ومع أن ما يمكن أن نخالف حوله مع سليمان موسى ليس قليلا، إلا أن سليمان موسى في المقابل لم يبد في الأحكام التي ساقها فيما يتعلق بحقبة المد القومي العربي بوجه خاص (1950-1970) راغبا في التجني قدر ما بدا راغبا في إبراء ذمته التاريخية والإدلاء بشهادته.

وثمة جرحان في (الثمانين) لم يدخر سليمان موسى وسعا لتضميدهما بالرضى الجميل عن الذات؛ أما الأول فإصراره على أنه شخص عادي لم يجترح معجزة تحله محلا إلى جانب العظماء ولم يمتلك ذكاء يؤهله لأن يكون عبقريا! وهو إصرار فيه غمط لبعض جهودهِ التي نرى فيها بعيدا عن معيار المعجزات والعبقریات إنجازا علميا يستحق كثيرا من الاحترام والتقدير - مثل كتابه عن (لورنس العرب) الذي حظي في الدوائر الغربية بأضعاف الاهتمام الذي حظي به في الأردن أو الوطن العربي. وأما الثاني فإصراره على تعويض التحصيل

العلمي الجامعي العالي المنتظم - لضيق ذات اليد - بالتثقيف الذاتي والمثابرة والعزم والتصميم على الإنجاز رغم كل وعثاء الطريق، وهذه كلها خصال لم تصنع عبقريا أو عظيما، لكنها جعلت منه مؤرخا يمتلك الجرأة على الاستمرار في الحياة بعد الثمانين، اقتناعا منه بأن (المؤرخين لا يتقاعدون)!

*راهبة في محراب الكتابة!

في صيف عام ١٩٦٢، في الثامنة والعشرين من عمرها، وبعد مرور أربعة عشر عاما على النكبة، يتفجر تيار وعي الإعلامية الشابة آنذاك نهى بطشون وهي تتوقف في جنوب إيطاليا في طريق عودتها إلى عمان لتقضي إجازتها من عملها في القسم العربي بهيئة الإذاعة البريطانية. لقد أطلقت رائحة البرتقال الإيطالي دموعها وذكرياتها التي خلفتها وراءها في يافا وفي اللد وفي القدس وفي رام الله حيث تترامى فروع العائلة الفلسطينية المسيحية، وحيث تترامى حكايات الطبقة المتوسطة الأكثر نجابة في العالم، والتي تم تصفيتها على أيدي مجموعة من العصابات والأفاقين والقتلة: فكم من شعوب العالم امتلك مطبعة وصحيفة في مستهل القرن العشرين؟! لقد عرفت نهى بطشون منذ أن وعت أن والدها إبراهيم بطشون يعمل في (جريدة فلسطين) التي تأسست في يافا عام ١٩١١ وظلت تصدر حتى عام ١٩٤٨، وقد أدار والدها مطبعة فلسطين منذ عام ١٩١٨ وحتى عام ١٩٤٦. أما أمها هدى بطشون فقد كانت أنيقة في ملابسها، فائقة الترتيب والنظافة ولها تفكير عصري ولديها قدرة فائقة على تقبل التغييرات الاجتماعية في العادات والتقاليد برحابة صدر، وكما أحبت أمها السفر فقد تميزت بقبولها للثقافات الأخرى حتى لو تعارضت مع (ثقافتنا) لأن لسان حالها كان يقول (لهم دينهم.. ولنا دين)!

في الجزء الأول من سيرتها الذاتية الحافلة، والتي شاعت الإعلامية المخضرمة نهى بطشون أن يتدثر بعنوان (راهبة بلا دير)، ثمة صفحات تصف العصامية الفلسطينية في سائر الحقول، سياسيا واجتماعيا وثقافيا واقتصاديا وصناعيا، وثمة صفحات تصف التسامح الفلسطيني الذي لم يتسع لتعصب أو لضغائن، وثمة صفحات تصف فجيرة الاقتلاع والرحيل باتجاه عمان التي حنت وأست وأزرت، والتي أصبحت وطنا يemor بالأحرار والشرفاء. فهاهي تلنقي مع نهاية المرحلة الثانوية الدكتور جورج حبش في عيادته الواقعة في منطقة المهاجرين قرب رأس العين، دون أن تكون مريضة بل لأسباب سياسية وطنية، وكانت تعرف كم كان هذا الطبيب إنسانا رائعا يعالج كثيرا من المعوزين بالمجان ويعطيهم الأدوية المجانية التي كان يدفع ثمنها من جيبه الخاص كما تقول هي. وحين سافرت إلى مصر ثم إلى البحرين ثم إلى

بريطانيا انقطعت الصلة بينها وبين عموم من كانت تعرفهم في عمان، ولم تلتق بالدكتور حبش مرة أخرى إلا حين جاء أحد رؤسائها في هيئة الإذاعة البريطانية ويدعى المستر طومسون طالباً ملاقة الدكتور حبش، فرتبت له موعداً وقابله على عجل لأن الدكتور حبش كان مضطراً للذهاب إلى مكان ما. وبألم شديد تؤكد نهى بطشون حضورها جنازته في كنيسة دخول السيد إلى الهيكل في منطقة الصويفية بعمان عام ٢٠٠٧.

وفي أحضان عمان الدافئة، وتحديداً في جبل عمان، حيث قام منزل الأسرة مجدداً، تتسج نهى بطشون العديد من علاقات الصداقة مع فتيات عمان، وبوجه خاص مع زميلاتهن من طالبات مدرسة (CMS)، حتى إذا تخرجت وتخرجن واطبن على صيانة هذه الصداقة من خلال الرسائل، وها هي صديقتها سهام المعشر تحدثها في رسالة لها عن وقتها في السلط قائلة: (أقضي أيامي في مطالعة الكتب، وأنا الآن غير متأكدة إن كنت سأحضر مؤتمر الطلبة أم لا). أما صديقتها منور مطارنة فكتبت لها من الكرك قائلة: (أما بشأن مؤتمر الطلبة فكانت سعاد عويمريين قد أرسلت لي رسالة أخبرتني فيها بأنها رشحتني للمؤتمر وطلبت مني الحضور ولكن لم تصلني بعد أي رسالة من المؤتمر). كما وصلتني في عام ١٩٥٦ رسالة من صديقتها فرجيني بجالي من مادبا تخبرها فيها بأنها التحقت بسلك التعليم في وكالة غوث اللاجئين وبأن أعوان كلوب قد إجتروا العديد من الأعمال المؤسفة بتاريخ ٢٣/٤/١٩٥٦ في مادبا.

كما أن نداء (حي على الصلاة..حي على الفلاح) انطبع في ذهنها لأنه يعمق إحساسها بالأهل والبلاد، فإن نهى بطشون مازالت وكلما كتبت رسالة أو سطرت مقالة تشعر بكثير من السعادة والقدسية، حتى بعد أن تم الإقلاع عن أقلام الكتابة السائلة، وحتى بعد أن تم الإقتصار على استخدام أقلام الحبر الجافة (القميئة)...على حد تعبيرها! وفي رحلتها هذه إبان زمن (الأبيض والأسود) لا تبدو نهى بطشون راهبة بلا دير - مع أن المجاز جميل - بل هي راهبة حقيقية في محراب التعليم والإعلام والكتابة هذا المحراب الذي امتد من فلسطين إلى الأردن والبحرين فالمملكة المتحدة فالأردن الذي مثلت فيه مؤسسة الإذاعة والتلفزيون المحطة الأكثر حميمية.

*مذكرات عابر سبيل

المرّة الأولى التي قرأت فيها للقصص والروائي مفيد نحلة كانت في عام ١٩٧٦، وذلك حين احضر لي والدي روايته (الرحيل) كي أقرأها. وكانت مديرية التوجيه المعنوي في القوات المسلحة قد اشترت فيما يبدو عدداً من النسخ ووزعتها على وحدات الجيش. وأذكر أن (الرحيل) كانت من النصوص الأولى التي أسهمت في تغيير منظوري التقليدي للكتابة وللعالَم نظراً لما اشتملت عليه من تقنيات لم أكن قد اعتدتها فيما قرأت قبل ذلك من قصص أو روايات.

وهاهو مفيد نحلة يطلع علينا بنص طريف يعود للعام ١٩٧٦ وإن تأخر نشره حتى عام ٢٠١٠، إنه (تأشيرة سفر: من مذكرات عابر سبيل). وطرافة النص تعود في المقام الأول إلى كونه وصفاً شائقاً لرحلة قام بها المؤلف وامتدت من فوبرتال بألمانيا مروراً بالنمسا ويوغوسلافيا وبلغاريا وتركيا وسوريا وصولاً إلى عمان في الأردن. وهي على الأغلب واحدة من آلاف الرحلات التي قام بها أردنيون من الأردن إلى ألمانيا أو من ألمانيا إلى الأردن خلال السبعينات وفي أوج ازدهار تجارة سيارات المرسيدس والفولكس فاجن.

رغم أن العرب هم من أكثر الشعوب غراماً بالسفر، تجاراً أو طلاب علم، قديماً وحديثاً، إلا أن أدب الرحلات والمشاهدات والمغامرات هو من أكثر الحقول فقراً في الثقافة العربية القديمة والحديثة، ولا ينافس في هذا الفقر إلا أدب السيرة الذاتية الذي راح يشتد في الآونة الأخيرة. وتكمن أهمية أدب الرحلات والمشاهدات في أن عين الغريب لمّاحة وترصد ما لا ترصده عين ابن الدار. وكم من مشهد مألوف وعادي حوّل قلم رحالة نابّه إلى معلّم فريد، كما نلمس عند ابن بطوطة وابن جبير وماركو بولو.

من بين آلاف الشباب المرتحلين بين ألمانيا والأردن والأردن وألمانيا في السبعينات، تقدر مفيد نحلة بوصف هذه الرحلة دون تكلف أو مبالغة؛ فالسارد -وهو يمثل مفيد نحلة على الأغلب- يقرر العودة إلى عمان بسيارته وحيداً رغم أنه لا يملك إلا قليلاً من المال. وما يجعل الرحلة على درجة كبيرة من المغامرة والطرافة أن الرحالة قليل الخبرة في قيادة وميكانيك السيارات، كما أنه لا يكاد يكلم أحداً طوال الرحلة إلا بالإشارة. ولا تكاد رحلته تبدأ حتى تتوقف على الحدود الألمانية النمساوية جرّاء حادث سير يتحمل هو مسؤوليته بسبب قلة خبرته في قيادة السيارات إذ أصر الشرطي النمساوي على عدم السماح له باجتياز الحدود إلا بعد أن يقوم باصلاح سيارته التي تضرر جناحها الأيمن ومقدمتها (السيارة خربة، لا يمكنك ان تسيّر على شوارع النمسا، فنحن نخاف على أطفالنا)!! فيعود أدراجه إلى مدينة فوبرتال ويصلح السيارة، ويزود بالعديد من الاطارات وقطع الغيار التي سيتكفل بيعها طوال الطريق بتسديد

كلفة سفره، وينطلق ثانية فيجتاز ألمانيا والنمسا وينزل في العديد من القرى الشبابية التي كانت تمرور بالنشاط والمرح والحركة، ومن أطرف هذه القرى الشبابية تلك الواقعة على بحيرة سالزبورغ والتي تشتمل على قاعة للخطابة حيث يمكن لأي راغب في الكلام أن يمتشق الميكرفون ويتحدث لجمهور كبير دون أن يفهم أحد من أحد شيئاً، وقد جرب مفيد نحلة حظّه فامتشق الميكرفون وخطب في الجموع الغفيرة عن فلسطين وعن انتخابات رابطة الكتاب الأردنيين ! ورغم أنهم لم يفهموا كلمة واحدة مما قال إلا أنهم صفقوا له بحرارة ومنحوه ميدالية تذكارية! ومن الملاحظ أن السارد وبعد أن اجتاز ألمانيا والنمسا ودخل الحدود اليوغسلافية شعر بأن (كل شيء تغير..اللغة، النظافة، الخدمة في الاستراحة، الطعام، الشاي، المشروبات، وجوه الناس، تصرفاتهم) وهي الطريقة التي أراد مفيد نحلة أن يعبر من خلالها عن الفارق الحضاري الشاسع الذي كان يفصل أوروبا الغربية عن أوروبا الشرقية. وقد نجح في نقل هذا الشعور واشعارنا بهذا الفارق طوال سفره عبر يوغسلافيا فبلغاريا فتركيا والذي لم يخل من أهوال ومخاطر كادت أن تؤدي بحياته جرّاء كثرة اللصوص والقتلة والمحتالين ، مع أن العناية الإلهية قيضت له العديد من الأشخاص الطيبين. وهو ما يجعل من الإهداء الذي وجهه مفيد نحلة (إلى أولئك الذين التقاهم عبر الطريق) تلخيصاً درامياً لكل ما حدث فعلاً.